دراسات فى مصادر تاريخ مصر فى العصر العثمانى

(١)

دراسة نصية لكتاب هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف

بقلم
الدكتور عبدالرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

عنوان الكتاب كاملا : هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف. (جزءان فى مجلد واحد) .

اسم شارح القصيدة : يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر الشربينى

اسم ناظم القصيدة : « أبو شادوف » شاعر شعبى مجهول .

تاريخ مصر فى العصر العثمانى — المملوكى ، مازال ميدانا خصبا للدراسة الجادة لوضع تقويم صحيح له ، من واقع مصادره الأصلية المبعثرة فى أماكن متعددة ،ومن بين هذه المصادر الكتابات المعاصرة التى واكبت بعض فترات هذا التاريخ، وسجلت أحداثه وملامحه ، ولم تدرس بعد الدراسة التاريخية المتخصصة .

والكتاب موضوع هذه الدراسة النصية ، خاص بالريف المصرى وأحوال الفلاح فى القرن السابع عشر الميلادى (١١ هـ / ١٧م) ، حظى بقدر قليل من العناية من غير المتخصصين — وعلى قلة هذا القدر فقد كان فى معظمه ، غير دقيق ، فلم يستطع أن يقوم ما فى الكتاب من أفكار ، وأن يدرس ما وراء هذه الأفكار من حقائق ، تاريخية واقتصادية واجتماعية ، وإنما درجت الدراسات السريعة غير المتخصصة التى تعرضت للكتاب إلى تفسير هدف الشارح ، وإيضاح أنه لم يكن

يقصد سوى تحقير الفلاح ، والحط من شأنه (١) ، وإزاء هذه النظرة السطحية للكتاب صدرت بعض طبعاته تحمل عناوين فكاهية (٢) ووسط هذه التفسيرات غير العلمية أسيء فهم هذا المصدر ، ولم تجسد الحقائق التاريخية والاقتصادية والاجتماعية التي تضمنها العناية الجديرة بها .

ولذا وجب إعادة النظر إلى هذا المصدر من مصادرنا التاريخية ، وتقويم ما فيه من حقائق وأفكار تقويما علميا ، وهذه الدراسة النصية التي نقدمها ، هدفها الأول التنبيه إلى أهمية هذا الكتاب ، وتصحيح بعض الأفكار الخاطئة التي شاعت عنه، ولذا فإنها اعتمدت أساساً على نصوص من الكتاب نفسه ، حتى لا ندع مجالا للاسراف غير العلمي في الحديث عن هذا المصدر .

---

(١) كتب عنه كل من ، محمد عبد الغني حسن في كتابه « الفلاح في الأدب العربي » العدد ١٢٨ المكتبة الثقافية ، ١٥ مارس سنة ١٩٦٥ ، وحسن محسب في كتابه « قضية الفلاح في القصة المصرية » العدد ٢٥٦ المكتبة الثقافية ، ١٥ يناير سنة ١٩٧١ ، عبد الجليل حسن ، في مجلة الكاتب أغسطس ١٩٦٤ ، العدد ٤١ ، ومقالة جيد وفيه بعض الأنصاف للكتاب .

(٢) طبع الكتاب في مطبعة بولاق مرتين ١٢٧٤ هـ / ١٨٥٧ م ، ١٣٠٨ هـ / ١٨٩٠ م ؛ ثم طبع بالمطبعة السعدية ١٢٨٩ هـ / ١٨٧٢ م وطبع بالمطبعة المحمودية بمصر بدون تاريخ تحت عنوان:

نكت وفكاهة وأدب المعروف بهز القحوف كما ورد في نهاية طبعة المطبعة السعدية « طبع هذا الكتاب المنظوم في سلك كتب المفاكهة بين الأصحاب » وصدر له تنقيح تحت اسم «قريتنا المصرية قبل الثورة» سنة ١٩٦٣ ، إعداد محمد قنديل البقلي وكتب عنه أحمد أمين في كتابه «قاموس العادات والتقاليد» وتوجد من هز القحوف نسخ عديدة بدار الكتب تحت أرقام ٢٧٦١ إلى ٢٧٦٤ ، ٤٣٣٥ ، ٣٠٨٦ ، ٥٠٨٤ أدب كما توجد منه نسخه مخطوطه بالمكتبة التيمورية (أدب ٧٨٣) وهذه النسخة مختلفة عن النسخ المطبوعة لأنها تبدأ بالجزء الثاني الخاص بشرح القصيدة ووجود الكتاب تحت فن أدب دليل على عدم التنبه لأهميته التاريخية .

والمنهج الذى اتبع فى هذه الدراسة هو :

أولا : التعريف بناظم القصيدة التى قام عليها الكتاب ، والظروف التى دفعته إلى الإعراب عما كان يدور بخلد أبناء طبقته ، نتيجة للمظالم التى أحاطت بهذه الطبقة .

ثانياً : التعريف بشارح القصيدة ، والظروف التى دعته إلى الأقدام على وضع شرحه هذا .

ثالثاً : دراسة الأفكار التى تضمنها نص القصيدة ، دراسة تاريخية .

رابعاً : دور الشارح فى إيضاح الحقائق التى ذكرها الناظم فى قصيدته، وتصويره للوضع الاقتصادى والاجتماعى للريف المصرى ، فى الفترة التى عاصرها

خامساً : وضـــع تقويم للكتاب كمصدر تاريخى ، اقتصادى ، اجتماعى وأهميته لدراسة هذه الفروع .

وعند معالجة النقطة الأولى من هذه الدراسة ، والخاصة بناظم القصيدة ، فإن ذلك يتطلب أولا ، معالجة الظروف التى دفعت به إلى عمله هذا والتى كانت سبباً فى تخليد اسمه مهما اختلف حول حقيقته .

ويجب أن نشير إلى أن القصيدة موضوع هذا الكتاب — كما يفهم من نصها لم توضع إلا بعد أن استقر نظام الالتزام فى العصر العثمانى ، وأصبح هو الأسلوب الأمثل الذى ارتضته الحكومة لإدارة الأرض ، وإحكام العلاقة بين الفلاحين والإدارة عن طريق الملتزمين كوسطاء بينها وبين أهل الريف ، إذ أن العثمانيين ، لم يتخذوا من هذا النظام — بصورته التى عرف بها منذ النصف الثانى من القرن السابع عشر أسلوبا لإدارة الأرض ، التى أديرت منذ بداية الحكم العثمانى وإلى سنـــة ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م بنظام المقاطعات ، أو ما كان يسمى بالأمانات لكل منها مفتش ليشرف ويحدد الضرائب على الأرض القابلة للزراعة ، وحمل كل من هؤلاء المفتشين لقب «أمين» أو «أفندى» وكان قانون نامه مصر سنة ٩٣١هـ/١٥٢٤م قد أقر هذا النظام ، ولكن هذا النظام لم يكن فى حقيقة الأمر هو النظام الأمثل لإدارة الأرض لأنه حمل فى طياته عوامل فشله ، فعجز المفتشين المختصين، وعدم أحكامهم الرقابة على

مناطق مقاطعاتهم ، واتباعهم أساليب غير مشروعة لزيادة متحصلاتهم وتعيينهم وكلاء لهم تعسفوا فى معاملتهم للفلاحين ، أثبتت هذه الأمور جميعها عدم إمكانية إدارة الأرض بهذا الاسلوب (١) .

وفى سنة ١٠٣٥هـ/١٦٤٣م اعاد مقصود باشا تنظيم المالية المصرية وانشأ ديوان الروزنامجة لأحكام الرقابة على أموال الخزانة ، وطور نظام الأمانات ، ولكن تطور الأحداث أثبت للادارة أنه لابد من بديل لنظام الأمانات يحكم قبضتها فى جباية الأموال الأميرية من الفلاحين ، فاهتدت إلى نظام الالتزام الذى يحمل أول دفتر منظم له بديوان الروزنامة سنة ١٠٦٩ هـ/١٦٥٨ م (٢) .

وإذا كان نظام الالتزام بما وضع له من قواعد وأسس محددة ومضبوطة ، أصبح وسيلة ناجحة لإدارة الأرض ، وضمن للادارة جباية الأموال المقررة بمختلف أنواعها ، إلا أن هذا النجاح كان لأمد غير طويل ، فسرعان ما أعلن هذا النظام إفلاسه وكثرت عمليات إسقاط الالتزامات (أى التنازل عنها) بصورة مزعجة ، فاضطرت الروزنامة إلى إنشاء سجلات خاصة بعمليات الإسقاط ، تسمى «سجلات إسقاط القرى » ويحمل السجل الأول منها تاريخ سنة ١١٤١هـ/١٧٢٨م(٣) ، ومنذ ذلك التاريخ بدأت فئة التجار تدخل ميدان الالتزام وتضارب بالأرض ساعدها على ذلك رأس المال الضخم الذى توفر لدى فئة منها ، وخير مثال لذلك محمد الداده الشرايبى ،

---

١ — مجلة المجلة ، العدد ١٥٨ فبراير سنة ١٩٧٠ « العلاقات بين القاهرة واستانبول أثناء الحكم العثمانى لمصر من القرن ١٦ حتى القرن ١٨ » بقلم روبير مونتران ترجمة ، زهير الشايب .

Stanford J. Shaw, The Financial and Administrative organization and development of Ottoman Egypt, 1517 - 1798. PP 19 - 26.

٢ — دار المحفوظات العمومية بالقلعة ، دفتر ١/ التزام ، مخزن (١) تركى .

٣ — توجد هذه السجلات بأرشيف المحكمة الشرعية بالشهر العقارى وعددها ٤٩ سجلا ، من الحجم المتوسط .

وابنه قاسم من بعده ، الذى تسجل « سجلات إسقاط القرى » فى كل صفحة من صفحاتها شراءه التزامات عديدة من الامراء المماليك وبعض أفراد الأوجاقات ، ومماليكهم وبذلك أصبح نظام الالتزام مشكلة تهدد الإدارة ذاتها ، بالإضافة إلى إرهاقه كاهل أهل الريف ، وكان لابد من إيجاد نظام بديل له ، ولكن الأحداث التى مرت بها مصر منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر لم تمكن الإدارة — التى انتابها الضعف — من البحث عن نظام بديل ، وجاء ذلك على يد محمد على فى سنة ١٢٢٨هـ/١٨١٣م بإحلاله نظام الإحتكار محل نظام الالتزام. وتجدر الإشارة إلى أن مشاركة عدد كبير من أدوات الإدارة كأعوان الملتزم مثل المشد ، الصراف أو المباشر ، الشاهد ، شيخ البلد ، الكاشف ، الخولى ، فى الإشراف على الأرض وجباية الأموال المقررة عليها أرهق الفلاح المصرى ، وزاد من أعبائه ، فلكل من هؤلاء الموظفين حقوق وعادات ، لابد للفلاح أن يؤديها فى مواعيدها المحددة . وإلا لحقه العذاب حتى أصبح لسانه يلهج دائماً بعبارات « مال السلطان» و « عادات الكشاف » و « نزلة الصراف »و« المونة »و« الوجبة » وغير ذلك من العبارات التى تدل على الخوف الذى أصبح يسيطر عليه ، وسوء الحال الذى حل به ، والظلم الذى لحقه(*) .

(*) من الطريف أن نذكر مثالا واحداً للعادات التى كانت تقدمها القرى لأجهزة الإدارة ففى سجل الترابيع رقم ١٦٠٥ المحفوظ بدار المحفوظات الخاص بولاية الشرقية سجل المال الخاص بكل عادة من العادات المقررة على قرية منية عامر كالآتى : =

وكان لابد من صوت يعلو معبراً عن الظلم والحرمان اللذين حلا بطبقة الفلاحين وقد كان، فملأ صوت الشاعر الشعبي المجهول، الذى اشتهر باسم « أبو شادوف »، تعبيراً عن كونه من أبناء هذه الطبقة، لطول ملازمة الفلاح لهذه الآلة التى كانت تستعمل فى رى الأراضى .

ويجب أن نقرر أن « أبا شادوف» ليس شاعراً معروف النسب والنشأة، وقد حاول الشيخ يوسف الشربينى شارح قصيدة أبى شادوف أن يثبت نسبه ويذكر شيئاً عن نشأته فذكر فى هذا الصدد روايتين، أردفهما بشعر على لسان أبى شادوف ولكننا نشك فى نسبة هذا الشعر إلى الشاعر الشعبي « أبى شادوف » بل أن هذا الشعر أمام الدراسة المقارنة يصبح وثيقة هامة تثبت أن «أبا شادوف» ليس شاعراً معروفا بعينه، وأنه صوت مجهول عبر عن حال الفلاح، والشعر الذى ذكره الشيخ الشربينى على لسان أبى شادوف :

=

بارة	
٢٠٠٠	ثمن حصان تقدمة
٢٠٠٠	عادة قائمقام
٣٠٠	عادة الخازندار
١٠٠٠	ثمن أغنام الضيافة
١٠٢٠	ثمن أغنام الهبة
١٠٠٠	ركبات مقررة
٣٠٦٠٠	ثمن سمن معتاد
٣٢٤٠	عادة الملتزم
٤١١٦٠	جملة مبلغ العوائد المقررة على قرية منية عامر بولاية الشرقية .

وقد سجلت دفاتر الترابيع العادات المقررة على القرى قرية قرية .

أنا ياناس فى قــولى دلايل	ونظمى حق ماهوش هبايل
أبو شادوف أنا قال لى أبـويه	عليــه وجدتى أم نايــل
بـأنى قــد تربيت ياجماعة	بكفر يعرفوه ناس أوايــل
يسمى كـفر شمرلى وطاطى	فكن صاحب فهامة يافاقل
وذا قولى وأبو شادوف اسمى	وشعرى حق من جانى بسايل(١)

وإذا تلمسنا الدليل لأثبات عدم نسبة هذا الشعر إلى الصوت الذى نظم القصيدة موضوع الكتاب وجدناه فى لفظة . هبايل فهذه الكلمة لاترد فى قصيدة أبى شادوف وإنما وردت مرات عديدة ومكررة في كل صفحة من صفحات الشرح ، وخاصة فى الجزء الأول من الكتاب ، الدى وضعه الشيخ الشربينى كمقدمة للشرح الذى خصص له الجزء الثانى ، فهو يذكر دائماً «هبايل» «هباليات» «هبالية» ، ولذا فإننا لا نستبعد أن يكون هذا الشعر ، من وضع الشيخ يوسف الشربينى نفسه لاستقامته مع أساوبه الشعرى والنثرى ، وعدم استقامته مع صياغة قصيدة الشاعر الشعبى أبى شادوف .

ودليل ثان على عدم نسبة هذا الشعر لأبى شادوف ، وأثبات أنه شاعر مجهول نجده واضحاً فى الشطرة الثانية من البيت الأخير «وشعرى حــق من جانى بسايل» فإذا كان الشاعر معروفاً ويجيب على من يسأله عن شعره بأنه حق ، فلماذا اختلاف الروايات التى ذكرها الشيخ الشربينى حول نسبه ومــكان نشأته ؟ . إلا إذا كان الشاعر مجهولا ، وأن هذه الابيات اقحمت عليه .

دليــل ثالث ، أن الشيــخ يوسف الشربينى يقدم لــكلامه فى روايتيه اللتين ذكرهما عن نسب ونشأة الشاعر الشعبى أبى شادوف بقوله «وسمعت» «وقيل لى»

١ـــ هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف ، ج٢ ، ص٩٠ ، جميع الصفحات التى ستذكر فى هذا البحث ، صفحات طبعة للطبعة المحمودية ، وسنشير إلى الكتاب بعد ذلك باختصار « هز » .

« وأقول » ونفينا نسبة الشعر السابق إلى « أبي شادوف » ينسحب على الشعر الذى ذكره الشيخ الشربيني على لسان « أبي شادوف » عن مكانته في كفر شمرلى وطاطى والذى يقول فيه :

أبو شادوف عمـري يا سلامة ... أقول القول وأنا صاحب فهـامة

ولولا أن أبويه فى ترابـو ... أنا فى الكفر شيخ بلا ملامة(١)

فإذا سلمنا بنسبة هذا الشعر إلى الشاعر الشعبي « أبي شادوف » فيجب علينا أن نسلم بوجود كفر باسم « شمرلى وطاطى » وبوجود «تل فندرك» الذى انتقل إليه الشاعر بعد وفاة والده على حد تعبير نص الشاعر المنسوب إليه ، ولـكن هذه الأسماء لا تجد الدليل الجغرافى الذى يقف بجانبها ، فإن المصادر التى دونت أسماء كفور وتلال مصر ، المندرس منها والمستحدث ، لاتذكر إسمى « كفر شمرلى وطاطى » « وتل فندرك »(٢) .

ونستخلص مما سبق أن « أبا شادوف » شاعر شعبي مجهول ، علا صوته معبراً عما انتاب الفلاح المصرى من ظلم ، وما حل به من حرمان ، وأصبح هذا الصوت مصدر إزعاج لـكثير من أصحاب النقمة والسلطان ، وخاصة بعد أن أصبحت قصيدته ، ينشدها كثير من أهل القاهرة ، فلجأ هؤلاء إلى أصحاب اليراع لوضع شرح عليها يقلل من قيمتها ، ويحط من شأن ناظمها ومن شأن أبناء طبقته من أهل

---

١ ـ هز ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

٢ ـ رجعنا إلى القاموس الجغرافى لمحمد رمزى ، والدليل الجغرافى الذى أصدرته مصلحة المساحة ، وبعض الأطالس القديمة ولم نعثر على أسماء هذه البلاد، كما أن دفتر الجسور رقم ١٣٦٥ المحفوظ بدار المحفوظات الذى سجلت فيه جميع القرى وحدودها لم يسجل لا إسم كفر شمرلى وطاطى ولا إسم تل فندرك .

٣ ـ هز ، ج ٢ ، ص ١٣٠ .

الريف ، وكان هذا العمل من حظ الشيخ يوسف الشربينى . فمن هو هذا الشيخ ؟ ومن الذى كلفه القيام بهذا العمل ؟ وما الظروف التى دفعته إلى قبول هذا التكليف؟ وهل حقق هدف مكلفيه ؟ .

* * *

الشيخ الشربينى هو يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر الشربينى نسبة إلى بلدة شربين ، التى كانت أنذاك من أعمال ولاية الغربية فقد ذكر « اتفق لى أننى كنت فى سفينة مسافراً من بلدى شربين لمصر ..»(١)، تعلم بالأزهر وعلم به وعمل بالوعظ وكما يبدو من كتاباته أنه كان على صلة بأصوله الريفية ، رغم أن والده لم يكن يعمل بالفلاحة على حد تعبيره ، وهو يحرص دائماً على ذكر اتصاله بالريف بقوله «اتفق لى أن رأيت وحكى لى بعضهم ..» يقصد أهل الريف « وشاهدنا ذلك » وغير تلك العبارات التى تدل على كثرة تردده على الريف ، وكثرة تطوافه بصفة خاصة بريف الدلتا ، ما بين دمياط والقاهرة ، كما اتيحت له فرصة السفر عن طريق الوادى أثناء ذهابه لتأدية فريضة الحج سنة ١٠٧٤ هـ - ١٦٦٤ م ، وفى اتصاله بالريف هذا - كما يتضح من كتاباته نفى لقول بعض الكتاب بأن « نشأة الشيخ يوسف كانت فى القاهرة ، وأن هذه النشأة القاهرية أقامت بينه وبين الريف سداً، وغطت بصره ، فلم ير للفلاحين فضيلة واحدة ، ولم يذكرهم بمحمدة ، وإنما أطال لسانه فيهم بما كان أقرب إلى التجنى منه إلى التحدى»(٢).

---

(١) هز ، جـ ٢ ، ص ١٠٠

(٢) محمد عبد الغنى حسن ، الفلاح فى الأدب العربى ، المكتبة الثقافية ، العدد «١٢٨» ، ص ١٤١ .

ولكن معرفة الشيخ يوسف الشربينى الواسعة بأحوال أهل الريف الاجتماعية والاقتصادية ووقوفه على دقائق لهجتهم ومعرفته بأصول هذه اللهجة . وبعادات أهل الريف ، كما يتضح لنا ذلك من نصوص الكتاب دليل واضح على عدم وجود هذا الحاجز بينه وبين أهل الريف .

ولكن إذا كان الشيخ يوسف الشربينى يرجع بأصوله إلى الريف، دائم الاتصال بأهله فلماذا أقبل على وضع كتابه هذا فى شرح قصيدة « أبى شادوف » ؟

والإجابة على هذا التساؤل نجدها عند الشيخ يوسف نفسه فقد ذكر أنه كان مكلفا بذلك من صاحب يد عليه لايستطيع مخالفته « فالتمس منى من لا أسعنى مخالفته ولايمكننى إلا طاعته ، أن أضع عليه شرحا . . . يحل ألفاظه السخيفة . . ويبين معانيه الذميمة ، ومقاصده المبيطة . وألفاظه الحويطة ، وأن أئمة بحكايات غريبة ومسائل هبالية عجيبة ، وأن أتحفه بشرح لغات الأرياف . . . وأشعارهم المغترفة من بحر التخابيط(١) .

أما الذى كافه ، ولم يستطع أحد ممن تصدوا للكتابة عن الكتاب على عجل ، أن يتنبه له فقد عينه لنا الشيخ يوسف نفسه ، فى الأرجوزة التى ختم بها الجزء الثانى من الكتاب والخاص بشرح القصيدة ، بأنه الشيخ أحمد السندوبى أحد علماء الأزهر وذلك بقوله :

« ونختم هذا الكتاب بأبيات من بحر الخرافات فنقول :

تم كتاب الهلس والتخريف وما جرى فى وصف أهل الريف جعلته جزآين باختصار .

---

(١) هز ، ج ١ ، ص ٢ .

وأصل ما الجانى لفصله　　وشرحه ونسخه ونقله
العارف الحبر وحيد الدهر　　وعالم الإسلام زاكى الفخر
شيخ إمام مصدر الطلاب　　وروضة العلوم والآداب
ومعدن الجود مع المطلوب　　وأعنى الإمام أحمد السندوبى
جزاه رب العرش جنات النعيم　　مع النظر لوجه مولانا الكريم
والله يرحم من قرأ كتابى　　هذا، ويرشده إلى الصواب
ومن رأى فيه عيوبا وخلل　　وسدها فالشخص معدن الذلل
ولا تلمنى فالسماح أفضل　　واعذر أخاك مكرها يابطل(١)

ولكن لماذا عزف الشيخ أحمد السندوبى(٢) نفسه عن شرح القصيدة ؟ ولماذا لجأ إلى الشيخ يوسف الشربينى بالذات ؟

ربما كان عزوف الشيخ أحمد السندوبى عن شرح القصيدة بنفسه راجع إلى ما عرف عنه من مقاومة الظلم ، والقصيدة تعبر عن مشاعر طبقة مظلومة تشكو بؤسها وحرمانها وتعرضه لذلك سوف يقوده إلى مزالق قد تخشى عواقبها .

---

(١) هز ، جـ ٢ ، ص ٢٢٣ — ٢٢٤

(٢) ذكر على مبارك فى الخطط ، جـ ١٢ ، ص ٥٧ عن الشيخ أحمد السندوبى « بأنه أحمد بن على السندوبى الشافعى المصرى ، كان من أعيان المدرسين بالأزهر ، ومن أكابر الأفاضل ذا عبارات فصيحة ، تصدر للاقراء فى ضروب من الفنون . . وحج مرات وتوفى بمصر سنة ١٠٩٧ هـ ، ١٦٨٥ م . وعمره ثمان وستون سنة رحمه الله تعالى .

وذكره الجبرتى فى الجزء الأول من كتابه عجائب الآثار ، مرات عديدة تحت اسم « الشهاب أحمد » .

وفى ذلك الوقت فإن الشيخ يوسف نظراً لاشتغاله بالوعظ ، وتطوافه الكثير بالريف ، كان على صلة قوية بعادات أهل الريف وأطعمتهم ، وكل ماتناولته القصيدة من أفكار ، وكان يدرك الظلم الذى حل بأهل الريف — كما سيتضح لنا فيما بعد — فقبل الإقدام على هذا العمل مدفوعاً بعوامل كثيرة كما سنرى .

وتجب الإشارة أن الشيخ يوسف الشربينى كان قديراً وجريئاً فى نفس الوقت فهو رغم ماألصقه من الفاظ بذيئة بعوام أهل الريف ، إلا أنه استطاع فى الوقت نفسه أن يظهر الظلم الواقع عليهم من أجهزة الإدارة ، وذكر أن هناك فئة من الملتزمين ضالة ظالمة لا ترعى ضميرا ولا ذمة ، كما سنرى ذلك عند دراستنا للكتاب . أما العوامل التى دفعت به إلى الإقدام على عمله ، فقد ذكرها لنا هو بنفسه بوضوح فى بداية الجزء الأول الذى جعله مقدمة للشرح الذى خصص له الجزء الثانى ، ويبدو من من كلامه أنه قبل هذا التكليف على كره منه .

عوامل قبوله التكليف :

أولا — سوء حال أصحاب البلاغة :

فلم يعد الاشتغال بالفكر فى فترة الركود ، يأتى لصاحبه بلقمة العيش أو يجلب له رزقاً» . وقد تساق الارزاق لمن لا يدرك الخط فى الأوراق ، ويحرم صاحب البلاغة ، ولا يجد من القوت بلاغة» (١) .

وفى هذا النص إشارة ضمنية إلى أن الشيخ يوسف أقبل على ذلك مأجوراً نظراً للفقر الذى كان يعانى منه العلماء ، بينما كان بعض الجهال ينعمون فى رغد من العيش .

---

(١) هز ، جـ ١ ، ص٣

ثانياً ـ مداراة أصحاب السلطان :

ذكر الشيخ يوسف أنه أقبل على هـذا العمل مداراة منه لأصحاب السلطان « فالشخص يكون مع زمانه بحسب حاله ، يدارى وقته بما يناسب لأحواله ويكون حـــذرا من دهره وصولته ، ويرقص للقرد فى دولته ، ويباشر الناس على قدر أحوالهم ، ويدور معهم ، وينسج على منوالهم ، ويندرج فى مدارج خلاعاتهم، ويظهر فى مظاهر براعاتهم كما قال بعضهم :

ودارهم مادمت فى دارهم   وحيهم مادامت فى حيهم

وأحسن العشرة مع بعضهم   يمينك البعـــض على كلهم »(١)

وقد كان الشيخ يوسف دقيقاً فى كتابته ، فهو يذكر سبب كل خطوة اتبعها ، فهو مدرك لمزاج عصره ، الذى اصبح لا يميل إلى سماع الفكر الجاد ، نظرا للهموم التى كبلت هـذا المزاج ، وشلت حركته الفكرية ، ولذا علل سبب تسميته الكتاب بالإسم الذى حمله بقوله « وقد سميت هذا الشرح هز القحوف بشرح قصيدة أبى شادوف، وأطلب من القريحة الفاسدة ، والفكرة الكاسدة الإعانة على كلام أعرفه من بنات الأفكار واسطره من فشار ، وأن يكون من بحر الخرافات ، والأمور الهباليات، والخلاعة والمجون . . فقد يلتذ السامع بكلام فيه الضحك والخلاعة ، ولا يميل إلى قول فيه البلاغة والبراعة لأن النفوس الآن مشوقة إلى شىء يسليها من الهموم، ويزيل عنها وارد الغموم :

ففى مذهبى أن الخلاعة راحة   تسلى هموم الشخص عند انقباضه »(٢)

ويمكن أن نستنتج من هذا النص ، إعتراف الشيـخ يوسف بأن حكاياته الهبالية

---

(١) هز ، جـ ١ ، ص ٤

(٢) هز ، جـ ١، ص ٣

وخرافاته التي وزعها في كثير من صفحات الكتاب ، كانت باعترافه من بحر الخرافات والمجون ومن نسج خياله لإدراكه الواعي بالظلم الواقع على أهل عصره حتى أصبحت النفوس على حد تعبيره « مشوقة إلى شيء يسليها من الهموم ، ويزيل عنها وارد الغموم » ثم أقبل على وضع الجزء الأول من كتابة قائلا « ولنشرع الآن فيما وعدنا ، وما زمرنا به ، ورقصنا، والشخص يغلب عليه علمه وفنه، والزامر لا يخبي ذقنه »(١) .

وسنعرض الآن لدراسة هذا الجزء ، ، وما جاء فيه لنبين إلى أي مدى حقق الشيخ يوسف هدفه في تحقيق رغبات من يهمهم مثل هذا العمل .

* * *

الجـــزء الأول :

هذا الجزء تأليف خالص ، وضعه الشيخ يوسف الشربيني ليمهد به للشرح الذي خصص له الجزء الثاني حسب تقسيمه للكتاب ، وهـذا الجزء في غالبه نسيـج من الحكايات الهزلية تحدث فيها عن أسماء أهل الريف ، رجالا ونساء ، والعادات السائدة بينهم والجهل المطبق عليهم ، وسوء اخلاق أهل الريف ـ كما يرى ـ حقيقة أن معظم هذه الحكايات ، إن لم تكن كلها مشحونة بالتشنيع والافتراء على أهل الريف، لكن لو أدركنا أن الشيخ الشربيني وضع هذه الحكايات الملفقة معللا ذلك بقوله ، «حتى يشتهر شرح هذا القصيد من دمياط إلى الصعيد ، وأرجو الايخلو منه إقليم ولا بلد من بلاد العبيد »(٢) .

كما ذكر مثل هذا القول في مقدمة أرجوزته التي ختم بها هذا الجزء من الكتاب قائلا «وبعد اني ناظم أرجوزة لطيفة ،مفيدة وجيزة ، تخبر عن حال ذوي الرزالة

---

(١) هز ، جـ ١ ، ص ٥

(٢) نفسه ، جـ ١ ، ص ٢

كذا عوام الريف ، لا محالة ، فخذ هـداك الله ، ما أقـول فى نظمها ، وعنه لاتحول»(١) .

ولكن يجب ألا ينسينا مثل هذا القول ، أن الشيخ يوسف ، كان حريصاً دائما على أن يذكر بعض العبارات ، التى يشعر القارىء أن فيها تصويراً لحال الفلاح السيئة والظلم الواقع عليه مثل عبارة «مال السلطان» التى كان يكررها على لسان الفلاح فى معظم حكاياته وكأنها سوط يقرع الفلاح وينهاه عن فعل أى شىء لنفسه قبل أن يسدد مال السلطان .

على أى حال فإن الشيخ يوسف ، وضع أهل الريف فى هذا الجزء فى إطار يرضى فى ظاهره أصحاب السلطان ، ويشبع رغبتهم ، بتصوير أهل الريف فى صورة سيئة تأبى العين النظر إليها ، ولكن فى ذات الوقت فإن التفصيلات الداخليـة لهـذه الصورة تحتوى بما لايدع شكا ، تصويراً كاملا للظلم الذى حل بهذه الطبقةوالاهمال الذى أصابها نتيجة للرقابة السيئة التى أصبحت تحكم العلاقة بين أفراد هذه الطبقة من جهة وأجهزة الإدارة من جهة أخرى ويكفى أن يرسم الشيخ يوسف الصورة التالية لسوء أخلاق أهل الريف ليرضى بها ظاهريا أولى الشأن فهو يقول «أما سوء اخلاقهم ، وقلة لطافتهم فمن كثرة معاشرتهم للبهائم والأبقار ،وملازمتهم لشيل الطين والمفار ، وعدم اكتراثهم بأهل اللطافة ، وامتزاجهم بأهل الـكثافة كأنهم خلقوا من طينة البهائم . : وأيضا عندهم قلة الوفا ، وعدم الانس والصفا ، لايؤدون القرض ، ولا يعرفـون السنة من الفرض ، ان عاملتهم أكلوك ، وأن نصحتهم أبغضوك وإن أقمت لهم الشرع رفضوك ، وأن ألنت لهم الجانب مقتوك ، العالم عندهم حقير والظالم عندهم كبير أمورهم معاند ، وليس عندهم فوائد ، عندهم قابض المال أعز من العم والخال ، سود الوجوه ، إذا رأوا معروفا انكروه كما قال الشاعر فى المعنى :

---

(١) نفسه ، جـ ١ ، ص ٨٣

أهل الفلاحة لاتكرمهم أبداً   فإن إكرامهم فى عقبه ندم
يبدو الصياح بلا ضرب ولا ألم   سود الوجوه إذا لم يظلموا ظلموا»(١)

ولكنه بجانب هذه الصورة فإنه يذكر كثيرا فى ثنايا حكاياته ، بعض مظاهر القسوة التى يرتكبها رجال الإدارة مع الفلاحين ، وهجر هؤلاء لقراهم ومزارعهم خوفا من العقاب ، فالإبن يفر هاربا إذا انكسر مال السلطان على أبيه ، وإلا أخذ رهينة حتى ينفق أبوه ماعليه من مال فعبارات « مال السلطان » و « المعونة » . «الوجبة» «نزلة الصراف» «مجىء الديوان» «نزلة الكشاف» لاتذكر فى هذا الجزء إلا ويشعر القارىء بمدى الرهبة التى كانت تسيطر على الفلاح عند سماعه إحداها . فحاول واحدة منها معناه طلب المال والعوائد من الفلاح رغم سوء حاله الاقتصادية التى أصبح يعيشها . ومن هنا كان الصراع بين طبقة الفلاحين من جهة ، وأجهزة الإدارة من جهة أخرى ، ولكن الغلبة كانت للفريق الأقوى ، وهروب الفريق الأضعف ، فهو صراع غير متكافىء على أى حال . أيضا فإن الشيخ يوسف فى هذا الجزء ، حرص كل الحرص ، أن يذكر دائما عبارة « عوام أهل الريف » فيقول

---

١ ــ هز ، ج ١ ص ٥ ــ ٦
للجبرتى وصف شبيه بهذا الوصف فقد «قال وقد سلط الله على هؤلاء الفلاحين بسوء أفعالهم ، وعدم ديانتهم وخيانتهم واضرارهم لبعضهم البعض من لايرحمهم ولا يعفو عنهم كما قال فيهم البدر الحجازى:

وسبعة بالفلاح قد أنزلت   لما حووه من قبيح الفعال
شيوخهم ، استاذهم والمشد   والقتل فيما بينهم والقتال
مع النصارى ، كاشف الناحية   وزد عليها كدهم فى اشتغال
ونقرهم ما بين عينيهم   مع أسوداد الوجه هذا النكال

عجائب الآثار ، ج ٤ ؛ ص ٢٠٨ .

« وقال لى بعض عوام أهل الريف » ، « واتفق لبعض عوام أهل الريف » والتعريض دائما فى هذا الجزء موجه إلى عوام أهل الريف دون غيرهم ، وربما أراد الشيخ بذلك أن يخرج من أهل الريف العرب والمماليك وغيرهم من أجهزة الإدارة الذين استلزم عملهم إقامتهم بالريف ، على أى حال فإن التعريض فى هذا الجزء ارتبط بعوام أهل الريف ، ولعله قصد بهم العاملين بالفلاحة فعلا .

وختم الشيخ يوسف الجزء الأول من كتابه ، بارجوزة طويلة سرد فيها جميع الأفكار الرئيسية التى وردت فى حكاياته من سوء أخلاق عوام أهل الريف ، وبذاءة أسمائهم والجهل والفقر اللذين حلا بهم ، والطرق الصوفية وسيطرتها على عقولهم وتأثيرها على حياتهم ، ثم سفه شعرهم ، وربما لأنه أدرك أنه مقبل على شرح قصيدة من هذا الشعر ولذا قال :

ناظمهم إن قال يوما شعرا ... فشعر يشبه طعم العذرا
سماعه إذا بدا رزية ... لكن له ما بينهم مزية(١)

ويجب أن نشير إلى أن الشيخ يوسف ، رغم كل ذلك ، قد التمس العذر لنفسه فالذى جعله يقبل على عمله هذا سمة العصر — على حد تعبيره — فهى التى دعته إلى مثل هذا التلون فى الأسلوب فذكر « فالسلامة فى مداراة الناس ، وحسن الانطباع معهم بلطف الإيناس وأن يكون الشخص متنقلا فى أطوارهم دائرا فى فلك أدوارهم كما صرحت بذلك فى بعض الأبيات .

فطورا ترانى عالما ومدرسا ... وطورا ترانى فاسقا فلفوسا
وطورا ترانى فى المزامر عاكفا ... وطورا ترانى سيدا ورئيسا
مظاهر أنس إن تحققت سرها ... تريك بدورا أقبلت وشموسا »(٢)

---

(١) هز ، جـ ١ ، ص ٨٧ (٢) نفسه ، جـ ١ ، ص ٥

وهكذا نرى أن الشيخ يوسف كان دائما يلتمس لنفسه العذر ، لكل مايقدم عليه ، وربما لأنه أدرك أن إقدامه على مثل هذا العمل سوف يجر عليه غضب ونقد الكثيرين .

* * *

الجزء الثانى .

عندما بدأ الشيخ يوسف الشربينى فى الجزء الثانى الخاص بشرح القصيدة الشعبية فإنه اعترف فى بداية هذا الجزء بأنه أطلق « عنان اليراع لبيان تلك الأمور الحاصلة لحل معانى نظم القصيدة(١) ويجب أن نتنبه لمغزى معنى عبارته « لبيان تلك الأمور الحاصلة » فإنه من خلال هذه الكلمات أعطى لنفسه حق ذكر وإيضاح الأعباء الظالمة التى كان يشكو منها الفلاح .

والدارس يستطيع أن يميز بسهولة فى القصيدة ثلاثة أقسام ، كل قسم منها تناول موضوعا قائما بذاته ، وسنعرض لكل منها على حدة ، نذكر نص الأبيات التى تشكل القسم ، ثم نتلوها بدراسة شرح الشيخ الشربينى لها ، وقد تناول القسم الأول (*)

---

(١) هز جـ ٢ ، ص ٩٠ .

(*) أبيات القصيدة موزعة على صفحات الجزء الثانى كله ، حيث أن الشيخ الشربينى يذكر البيت من النص ويضع أمامه حرف (ص) يقصد النص ثم يشرحه بوضع حرف (ش) أمام كلامه ويقصد الشرح وقد قمت بتجميع نص القصيدة من صفحات الجزء الثانى وكتبت أبيات كل قسم على حدة ، حسب التقسيم الذى وضعته لموضوعاتها .

١ ـ القسم الأول من القصيدة وموضوعه :

شكوى الفلاح من ظـلم الملتزمين وأعوانهم من أجهزة الإدارة والأبيات التى تصور هذا الجانب من حياة الفلاح .

١ ـ يقول أبو شادوف من عظم ماشكى	من القـل جسمه مايضال نحيف
٢ ـ أنا القمل والصيبان فى طوق جبتى	شبه النخالة يجـرفوه جريف
٣ ـ ولا ضرنى إلا ابن عمى عحيلبـة	يوم تجى الوجبـة علىَّ يحيف
٤ ـ وأيشم منه ابن أخـوه خنافر	يقـرط على بيضى يخليـه ليف
٥ ـ ومن نزلة الـكشاف شابت عوارضى	وصار لقلبى لوعـة ورجيف
٦ ـ ويوم يجى الديوان تبطل مفاصـلى	وأهر على روحى من التخويف
٧ ـ وأهرب حدا النسوان والتف بالعبا	ويبقى ضراطى شبه طبل عنيف
٨ ـ ويادوب عمرى فى الخراج وهمـه	تقضى ولا لى فى الحصاد سعيـف
٩ ـ ويوم تجىء المونة على الناس فى البلد	تخبينى فى الفرن أم وطيف

واضح من هذه الأبيات شكوى الشاعر الشعبي الذى يعبر عن إحساس بنى طبقته من الظلم الواقع عليهم من أجهزة الإدارة التى يتعاملون معها ، وقسوة هذه الأدوات العثمانية ـــ المملوكية ، ـ فى جمعها للأموال ، وانباعها طرقا غير مشروعة ، وهذا مالم يستطع الشارح أن ينـكره ، بل أكده كمعاصر ، وشرح هذه المظالم التى كانت سائدة فى عصره بإيضاح ، مما يجعل لمعلوماته أهمية كبيرة ، ترقى إلى مصادر الدرجة الأولى لدراسة تاريخ مصر فى تلك الفترة ، والأدلة على ذلك كثيرة فى الشرح نـكتفى بذكر البعض منها ، فمثلا عندما يتعرض لشرح البيت الثالث الخاص بشكوى الفلاح من الوجبة يذكر « بمجرد طلوع الشد أو الملآزم أو النصرانى إلى الـكفر ، أو البلد ، فتوزع على الفلاحين بحسب ما يخصهم فى الأرض من القراريط والفدن ،

ونحو ذلك ، فمنهم من يكون عليه فى الشهر يوم ، ومنهم من يفعلها فى كل جمعة(*) مرة ، ومنهم من يجعلها فى كل ثلاثة أيام ، وهكذا بحسب كثرة الفلاحين وقلتهم ، وحسب زيادة الأرض ونقصها فلابد منها فى كل يوم مدة الإقامة ، فيقوم الرجل بـكلفة للشد أو النصرانى إن كان حاضرا ، وجميع من يكون ا من طائفة الملـتزم ويلتزم بأكلهم وشربهم ، وجميع مايحتاجون إليه من عليق دوابهم وما يتمنونه من المأكل من اللحم والدجاج ، ولو كان فقيرا الزموه بذلك قهرا عليه ، وإلا حبسه المشد وضربه ضربا موجعا ، وربما هرب من قلة شيء يصنعه ، فيرسل المشد إلى أولاده وزوجته ويهددهم ، ويطلب منهم ذلك ، فربما رهنت المرأة شيئا من مصاغها أو ملبوسها على دراهم ، وأخذت الدجاج أو اللحم وأطعمتهم وأحرمت أولادها من الأكل منه خوفا على نفسها من أنه لايـكفيهم مثلا ، وقد يربى الفلاح الدجاج فلايأكل منه شيئا ويحرم نفسه وعيـاله من خوفه من الضرب والحبس . . . وصارت (الوجبة) على الفلاحين حكم الأمر الواجب عليهم للملتزمين ، فلا بد من فعلها للمشد بالقرية أو النصرانى أو للملتزم ، إذا حضر كما تقدم بيانه ، وإذا أسقطها بعض الملتزمين ، جعـــل فى مقابلتها شيئاً معلوما من الدراهم وأضافه إلى المال ويلزمهم بدفعه إلى المشد بالقرية ، تؤخذ منهم كل عام فهى من أنـواع الظلم» (١) .

وفى رأينا أنه لايوجد أبلغ وأوقع فى النفس من هذا الوصف التصويرى الذى

(*) يقصد كل أسبوع .

(١) هز ، جـ ٢ ، ص١١٥ .

سبق أن بينا من واقع سجلات الترابيع كيف كانت تقدر العادات بأموال تضاف إلى المال الميرى ، كما أن سجلات الالتزام سجلت ذلك أيضا .

أثبته الشيخ يوسف الشربيني لهذا النوع من الظلم الذي فرض على أهل الريف، وواضح أنه أصاب الهدف بتصويره هذا النوع من المظالم في أسلوب واضح دقيق لا يحتاج معه إلى دليل آخر. وأنه إذا كان قد قسى على الفلاح في ظاهر الكثير من ألفاظه إلا أن ذلك لم ينسه تسجيل المظالم التي وقعت عليه من أصحاب السلطان.

وكان منصفاً حقاً عندما ذكر أن بعض الملتزمين كان يتعفف عن الوجبة بالكلية وتحدث عن غرامة البطالين واستخدام الفلاحين بدون أجر قائلا « فكل ما كان فيه اضرار للناس فهو حرام»، ويبين لنا بوضوح «أن الأمير أو غيره إذا التزم بقرية وجد في دفاتر من التزم بها قبله الوجبة وغرامة البطالين، وغير ذلك مما هو من أنواع الظلم، فيجعل ذلك على أهلها حكم الحوادث * السابقة كما جرت به العادة»(١) والحقيقة أن الشيخ يوسف الشربيني في شرحه هذا لا يقل درجة عن ما أثبتته الوثائق فقد سجلت دفاتر الالتزام المحفوظة بدار المحفوظات العمومية بالقلعة بالقاهرة، العادات المقررة على الفلاحين للملتزمين والكشاف وغيرهم.

وكذلك أوضح في شرحه لنزلة الكشاف على القرى، مدى الخراب الذي كان يلحق بعض القرى نتيجة لتصرفاتهم، وكيف أن الفلاحين « يسرعون له في الاكل والشرب والتقاديم على ماجرت به العادة » (٢).

أما وقت مجى «الديوان»، أي حلول ميعاد سداد مال الديوان « فيكثر الخوف والحبس والضرب لمن لا يقدر على غلاق المال، فمن الفلاحين من يقترض الدراهم بزيادة، أو يأخذ على زرعه إلى أوان طلوعه بناقص عن بيعه في ذلك الزمن، أو

---

(١) هز، جـ ٢، ص ١١٥.
* الرسوم والضرائب المستحدثة
(٢) هز، جـ ٢، ص ١٢٢.

يبيـع بهيمته التي تحاب على عياله ، أو يأخذ مصاغ زوجته برهنه ، أو يتصرف فيه بالبيع ولو قهرا عليها ، ويدفع الثمن للنصرانى ، أو لمن هـو متولى قبض المـــال وإن لم يجد شيئا ، ولايرى من يعطيه ، وخشى الملتزم أو المشد من خرابه (*) من البلد أخذ ولده رهينة عنه ، حتى يغلق المال ، أو يأخذ أخاه ، أن لم يكن له ولد أو أحد من أقاربه ، أو يوضع فى الحبس للضرب والعقوبة حتى تنفذ فيه أحـكام الله تعالى ، ومنهم من ينجو بنفسه فيهرب تحت ليله فلا يعود إلى بلده قط ، ويترك أهله ووطنه من هم المال وضيق المعيشة . . . حتى اشتهر وعم مال السلطان يخرج من بين الظفر والاحم» ثم يذكر «نزول الديوان فى البلد على كل حال ، أمر مهول على الفلاحين ، ومصيبة على المقلين . . . فلابد على كل حال من تغليق المـال ، ولو حصل من ذلك الهم والنكال»(١) وهكذا نرى أن الشيخ الشربينى لم يستطع،ازاء شكوى الشاعر الشعبى سوى ذكر الحقائق، ووضعها بالصورة التى كانت تطبق بهـا فى وقته حتى أصبحت معلوماته ذات أهمية تاريخية كـبيرة ، أضف إلى ذلك أن الشيخ الشربينى سجل لنا حقائق على قدر كـبير من الأهمية ،فهو يذكر أن قابض المـال لم يكن فى كل الاحوال نصرانيا ، كما هو شائع ويفهم ذلك من قوله ويدفع الثمن للنصرانى ، أو لمن هو متولى قبض المـال .

ثم يواصل الشيخ رسم الصورة التى شكى منها الشاعر الشعبى ، ويزيدها إيضاحا عندما يعرض لشكواه من قضاء عمـره فى الهم من أجل الخراج ، عاقدا لنا مقارنة تاريخية جميلة بين المغارم التى أصبحت تحل بالفلاحين فى عصره نتيجـــة للعوائد

---

* ـ يقصد هروبه من البلد .

١ ـ هز ، ج ٢ ، ص ١٢٥ ، ١٢٨

وكثرتها وبين الصورة اليسيرة التى كانت تسير عليها الأمور فى العصر السابق لعصره ويبين لنا كيف أن « الأرض لايقوم بزرعها إلا الفلاح القوى المتيسر ، خصوصا لما زاد عليها الآن من المظالم ، وزيادة الخراج والعوائد المكتتبة على الفلاحين والمغارم فالزرع وإن ورد أن فيه تسعة أعشار البركة لايفى بهذا المقدار من كثرة الظلم ، وأما فى الزمن المتقدم فلم يكن عليه عوائد ، ولا كلف ولا مغارم ولا شىء مما هو موجود الآن بل كان الشخص يزرع الأرض ، وكان خراجها شيئا يسيراً ، ولايعرف وجبة ولا غرامة ولا شيئاً من ذلك قط » ويعقب بقوله «وكانت البركة حاصلة بزيادة والأرض كلها عامرة بالزرع والناس فى غاية الخير وسعة الرزق والكسب»(١) .

لاريب فى أن هذه المعلومات التى سجلها الشيخ الشربينى كمعاصر لوقت حدوثها بأمانة ودقة ، مع ربطها بالصورة التى كانت سائدة قبل عصره ، وهذا المنهج يعطى لشرح الشيخ الشربينى الصفة العلمية الموضوعية .

وعندما يعرض للعونة وخوف الفلاح منها وخشيتها ، فإنه يشرحها بصورة واضحة يستطيع الدارس أن يجد فى شرحه كل مايبتغيه عن ماهيتها ووقتها والقرى التى تشملها وإقرارها ، وعدم شرعيتها فهى « أوان حفر السواقى وضم الزرع ، وحفر القنى ، مما يحتاج إليه فى هذا المعنى ، والعونة (السخرة) إنما تكون فى بلاد الملتزمين التى فيها الإوسية ، وهو أن غالب الملتزمين إذا أخذ قرية ، أو كفرا من كفور الريف يزرع فيها ، أو فى الكفر جانباً من الأرض ، والبقية يعطيها الفلاحين بخراج معلوم ، ويسمى هذا الجانب الذى يزرعه زرع الأوسية فيرسل ثيراناً وأخشابا ومحاريث وما يحتاج إليه ، ويجعل له على ذلك وكيلا ومحلا معداً لأخشابه وبهائمه ، ويقال لها دار الأوسية ، ويوكل من يصرف على البهائم وغيرها ، بحساب وضبط ،

---

(١) هز ، ج ٢ ، ص ١٤١ .

فإذا احتاج الأمر لشيل الطين من الآبار ، ولحفر القنى أو ضم الزرع ، أمر الشد بالقرية أو الكفر رجلا يقال له النذير فينادى المونة يافلاحين ، المونة يابطالين ، فيخرجون عند صبيحة النهار جميعهم ، ويسرحون للحفر ، أو لكل ماياًمرهم به كل يوم ، من غير أجرة ، إلا أن يفرغ الحفر والضم ، وكل من تراخى أو تكاسل عن السروح ، أخذه الشد وعاقبه وغرمه دراهم معلومة ، وبعض البلاد تكون المونة فيها على رجال معروفين بالبيوت مثلا (*) ، فيقولون يخرج من بيت فلان شخص واحد ومن بيت فلان شخصان بحسب ماتقدر عليهم قديماً وحديثا ، فلاينفك من عليه المونة منها ، وإن مات جعلوها على ولده ، وهكذا ، فهى داهية كبرى على الفلاحين ومصيبة عظمى على البطالين ولله الحمد أراح الله قريتنا منها ، إنما هى قراريط معلومة على الفلاحين لايعرف الملتزم إلا خراجها يأخذه فى كل سنة على التمام والكمال ، وإن كان عليهم بعض العوائد ، ومظالم فليست كبلاد الأوسية ، لأنهم دائما فى تعب وكدر وغرامة وسخر وهم زائد »(١) .

وهكذا أوضح الشيخ الشربينى بما لايدع مجالا للشك مدى الظلم الذى كان يحيق بالفلاحين نتيجة للمونة وغيرها من العوائد ، بل أكد أن المونة من أشد أنواع المظالم التى حلت بالفلاح آنذاك ، وبذلك نستطيع أن نقرر أن الشيخ يوسف الشربينى فى شرحه لهذا القسم من قصيدة الشاعر الشعبي أبي شادوف وضع أمامنا الحقائق التالية .

(*) يقصد بالبيوت العائلات .

(١) هز ، ج ٢ ، ص ١٤٤ — ١٤٥ .

ذكر الجبرتى عن المونة « وكان من طرائقهم أنه إذا آن وقت الحصاد والتخضير طلب الملتزم أو قائم مقامه الفلاحين فينادى عليهم الخفير أمس اليوم المطلوبين فى صبحه بالتبكير إلى شغل الملتزم ، فمن تخلف لعذر أحضره الخفير أو المشد وسحبه من

أولا . أن الفلاح كان يعانى الكثير من المظالم التى حلت به نتيجةلتطبيق نظام الالتزام عليه وادارة الأرض الزراعية عن طريقه .

ثانيا : استغلال الملتزمين واعوانهم من أجهزة الادارة ، لسلطانهم ، واتباعهم طرقا غير مشروعة فى معاملتهم الفلاحين ، وفرضهم كثيرا من العوائد التىأصبحت ترهق كاهل هذه الطبقة .

ثالثا : تقاعس السلطة المركزية فى القاهرة ، عن ردع هذه الادوات وتركهافى ممارسة تعسفها مع الفلاحين ، دون تدخل من جانبها ، فيه دليل إدانة لها وبرهان على ضعفها .

وأخيرا يمكنناأن نقرر باطمئنان ، أن الشيخ الشربينى، اذا كان قد الصق كثيرا من الصفات البذيئة بالفلاحين ، إلاأنه فى هذا الجزء من كتابه كانجريئا حقا عند توضيحه المظالم التى حلت بالفلاحين ، ونقده للاوضاع السائدة ، وعدم تردده فى ذكر أنها ظلم وحرام وغير ذلك كما سبقت الإشارة، وهنا يمكننا أن نذكر أنه اذا كان فى الكتاب جانب اتهام للفلاح — وربما كانت له دواعيه . فإن فيه أيضاجانب إنصاف .

* * *

٢ — القسم الثانى من القصيدة وموضوعه :

الأطعمة التى تمناها الشاعر الشعبيأبوشادوف، تعبيرا عن حاجة ابناء طبقتهاليها: رغم فقر هذه الأطعمة ، إلا أن تغنى الشاعرالشعبى بحرمانه منها ، يوضح لنا الىأى مدى ساء حال الفلاح حتى اصبحت نفسه تهفو الى هـذه الاطعمة ، وذلك نتيجة للمظالم التى سبقت الاشارة اليها والتى أرهقت كاهله أما الابيات فهى :

= شتمه واشبعه سبا وشتما وضربا ، وهوالمسمى عندهمبالعونة والسخرة، واعتادوا ذلك بل يرونه من اللازم الواجب » عجائب الآثار ج٤ص٢٠٧ وقدرأينا أن وصف الشيخ الشربينى أكثر إيضاحا وتصويرا وعمقا مما ذكرة الجبرتى .

١٠–ولا هدنى من بعد هاد ، وهاده   سوى الـكشك(*) لما يستحق غريف

١١–ولا شاقنى الا المدمس وريحتو   علا من جتو جفنه بنص رغيف

١٢–علامن رأى البيسار فى الجرن جالوا   ويدعس (**) ولوكان بالقلنج ضعيف

١٣–على من قشع جفنه بليلة ملانـــه   ولو كانت بلا قلقـاس يادنديف

١٤–على من جتو قصعه وهو بيحـرت   ويقمـد يجرف الحنك تجريـف

١٥–على من دعس بالعزم فى الملش بالبصل   ولو كان بالـكرات كان ضريـف

١٦–على من شرب مترد ملان مطنبر   من اللبن الحامض يرف رفيـف

١٧–على من جتوا أم الحـاول لدارو   ويعزم على أهل البـلد ويضيـف

١٨–أنا إن شفت عندى، يوم طاجن مشكشك   فهـداك يوم البسط والتقصيـف

١٩–متى أنضر الخبز فى الدار عنـدنا   واندف منها بالعويش نديف

٢٠–متى أنضر الفول المشوى بفرننا   ولفو يقشروا والمروق لفيـف

٢١–متى أنضر أن طحن الطحين وجبتو   وبطط لى منـه فطـير رهيـف

٢٢–أيامطيب الجلبان والعدس إذا استوى   وشرش بصل حولو وميت رغيـف

٢٣–ياحسن الخبز القمر على النده(***)   فوقو من السرسوب حلب نضيف

٢٤–على من ملا قحفو جبينه طريـه   وراح ورا الجاموس يرعى النيف

٢٥–على من قشع لقانة أمو ملانـه   من الميطلية اللى لهـا ترصيـف

٢٦–وأقعد لها بالعزم فى رايق الضحى   واسحب لهـا مصبوبة أم وطيـف

(*) نوع من الطعام لازال يستعمل فى الارياف .

(**) أى يأكل بشراهة حتى يملأ بطنه .

(***) يقصد فى الصباح المبـكر وقت أن يكون الندى على النباتات .

٢٧- ألا يا ترى إشحال اللبن بعد غلوه ولو كان بالخبز السـخين رديف

٢٨- ألا يا ترى إشحال مفروكة اللبن على زلطها قلبي يرف رفيف

٢٩- أنا إن شفت لقانة ابن عمى غخيمر ملانة من التفتيت ملو طفيف

٣٠- قشرته جميعه ما تركت بقيته لغيرى ولا عنـدى بدا توقيف

٣١- أناخاطرى أكلت فسيخ على النده أضـال عليها باكيا وأسيف

٣٢- على من نضر فى فرن دارو طواجن زغاليل من برج بن أبو شعنيف

٣٣- وفطر فطاير من طحين ابن عمه ويقعد لها قعدة غلام خسيف

٣٤- على من نضر طاجن سمك فى فرينه ولو كان يا إخوانى بلا تنضيف

٣٥- على من رأى فى التل كرش ملقح ومن فوقه الدبان يعف عفيف

٣٦- دنا إن شفته خدتو بحالو سلقتو وكلتو بتلفوا ما أرى تقنيف(*)

ولم يزد عمل الشيخ الشربينى عند شرحه لهذا القسم رغم طوله ، عن وصف هذه الأطعمة وأن الفلاح حرم منها ، نتيجة للمظالم اللاوية التى حلت به ، ونظر لنشأة الشيخ الريفية ، وتردده على كثير من القرى، والتقائه بكثير من أهل الريف، فإنه أجاد فى شرحه لصناعة هذه الأطعمة ، فى كل من الريف والمدينة ، وأكد أن صناعة هذه المأكولات أحسن وأكثر إتقانا فى المدينة عنها فى الريف، كما ذكر بعض الحكايات المتعلقة بتسمية هذه الأطعمة ، وبعض فوائدها فى علاج بعض الأمراض، وزمن ظهور بعضها،وفى زمن من الخلفاء والسلاطين ظهر هذا الصنف أو ذاك ، وسجل بعض الأشعار والمواويل التى تغنى بها أهـل الريف عن هذه الأطعمة .

• • •

(*) وضع الشيخ الشربينى فى شرحه وصفا واضحا لجميع هذه الأطعمة والأوانى التى تستعمل فى صناعتها .

٣ ــ القسم الثالث من القصيدة وموضوعه :

تمنى الشاعر الشعبي زيارة المدينة وتحقيق بعض أمنياته فيها وأكل بعض الأطعمة التي حرم منها :

٣٧ـ أنا إن عشت لاروح المدينة وأشبع — كروش ولو أنى أموت كفيف
٣٨ـ وأخذ من غزل العجوز وأبيعو — وآكل بحقو يا ابن بنت عريف
٣٩ـ وأسرق من الجامع زرابين عدة — وآكل بها من شهوتى فى الريف
٤٠ـ وأشبع من الترمس وآكل مقيلى — والفوا بقشرو ما أرى توقيف
٤١ـ وآخذ لى لبـــدة وكرمشنير — وأنزل كما كلب ابن أبو جفنيف
٤٢ـ ويجلس بجنبى ابن جرو وكل خره — وابن كل الصك النضيف وضيف
٤٣ـ وابن فسا النيران وابن خرا الحسه — وقلوط الزبـــلة وابن كنيف
٤٤ـ واختم قصيدى بالصلاة على النبي — نبى عربى مكى شريف عفيف

• • •

وواضح من هذا القسم أن الشاعر الشعبي عبر عما يعانيه أبناء طبقته من الحرمان والفاقة ، فدارت بخاطره أمنيات ، تمنى أن يحققها بذهابه إلى المدينة ، لعله يتمكن من إشباع نهمه بالمأكولات التى حرم منها ، حتى ولو كلفه ذلك ، ارتكاب جريمة السرقة فترجم بذلك عن ذات نفسه ونفس أبناء طبقته بشعره هذا .

• • •

من العرض السابق لجزئى كتاب هز القحوف ، يتضح لنا أن الكتاب على جانب كبير من الأهمية لدراسة تاريخ مصر فى العصر العثمانى لأمور عدة :

(*) يقصد ثمنه .

أولا : إن القضية الأولى والهامة التي يثيرها الكتاب ، وتشكل عموده الفقرى هي قضية الفلاح وحاله في العصر العثماني المملوكي ، فإذا كان بطل الكتاب الأول الشاعر الشعبي أبو شادوف ، قد نظم قصيدته ، مبيناً لنا سوء الحال التي عانى منها الفلاح ، والظلم الذي وقع عليه في ذلك العصر ، فإن الانصاف يستدعى أن نذكر أن الشيخ يوسف الشربيني ، قد أضاف بشرحه للقصيدة الأمور إيضاحا ، كما ظهر لنا من النصوص التي ذكرناها ، وأوضح بأسلوبه أن هذه من أمور الظلم التي حلت بالفلاح في ذلك العصر .

ثانياً : أوضح الكتاب في جزئه الأول ، مــــدى سيطرة الطرق الصوفية على سكان الريف وترك لنا بصمات تدل على أنه إذا كان قد وقع على الفلاح مكرها ، ظلم الإدارة نتيجة للأعباء التي أصبح يئن منها ، فإنه عن طواعية واختيار أضاف عبء العادات التي كان يتطلبها وقوعه تحت سلطان الطرق الصوفية وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

ثالثاً : يعد الكتاب مرجعاً وافياً لدراسة العادات والتقاليد الريفية والحضرية التي كانت سائدة في مصر في القرن السابع عشر الميلادى ، والتي مازال بعضهـــا حياً في كثير من قرانا ومدننا ، ولذا فإن الكتاب يصبح مصدراً وثائقياً هاماً لدراسة المجتمع المصرى في تلك الفترة، بل والفترة السابقة لأن الشارح كثير الاستطراد في أسلوبه ، فكثيرا مايتتبع نشأة هذه العادة أو غيرها عن طريق سرد الكثير من القصص والحكايات .

رابعاً : في الكتاب جانب طبي هام حيث أن الشيخ الشربيني في أثناء شرحه

يسرد كثيراً من الحكايات عن فوائد بعض الأطعمة الطبيعية ، والأغراض التى تستعمل فيها ، وكيف يستعملها الفلاحون ، ورغم أن الكتاب يعد موسوعة فى هذه الفروع ، ورغم استطراد الشربينى من موضوع إلى موضوع والخروج من حكاية إلى حكاية ، فإن كل هذه الأمور لا تحجب عن العين القضية الأولى والهامة التى يعالجها الكتاب وهى قضية الفلاح . فالكتاب مصدر جدير بالاهتمام .

* * *

نقد الكتب